

النثر في العصر الجاهلي

النثر اصطلاحاً:

هو الكلام الذي ليس فيه الوزن ويعتمد على الحقائق. بتعبير آخر: النثر هو الكلام المقفي بالأسجاع. حيث يقصد به الكلام المرسل غير الموزون ولا المقفى وهو خلاف المنظوم ، ويعد إلى جانب الشعر وسيلة من وسائل التعبير الفكري الإنساني .

النثر أدب إنساني، وهو على ضربين: أما الضرب الأول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحياناً من أمثال وحكم، وأما الضرب الثاني فهو النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يعنى النقاد في اللغات المختلفة ببحثه ودرسه وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يمتاز به في كل طور من صفات وخصائص، وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين، هما الخطابة والكتابة الفنية - ويسميا بعض الباحثين باسم النثر الفني - وهي تشمل القصص كما تشمل الرسائل الأدبية المحبرة، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة .

و يرى أنّ النثر ما يقصد صاحبه إلى التأثير في نفوس السامعين والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصيغة وجمال الأداء، وهو أنواع: منه ما يكون قصصاً ومنه ما يكون خطابة، أو رسائل أدبية مُحبرة، ويسمى هذا النثر بالنثر الفني، ويرى أننا لا نملك وثائق جاهلية صحيحة تدل على أن الجاهليين عرفوا الرسائل الأدبية، إلا أنهم عرفوا القصص والأمثال والخطابة وسجع الكهان، ولقد كانت رواية النثر الجاهلي قليلة بجانب ما روي من الشعر وذلك لعدة أسباب:

- ١- الاهتمام بنبوغ شاعر في القبيلة يدافع عنها ويفخر بها، فكانت القبيلة التي تملك شاعراً قبيلة يعترف بمكانتها، ولا يقطع ذكرها بسبب رواية شعر شاعرها.
- ٢- قلة التدوين أو انعدامه، والاعتماد على الحفظ والرواية.
- ٣- سهولة حفظ الشعر لما فيه من إيقاع موسيقيّ.

انواع النثر في العصر الجاهلي

أولا - القصص :

لم يدون الجاهليون شيئاً من نثرهم ولا شعرهم، وهذا لا ينفي معرفتهم للكتابة، بل عرفها بعضهم واستخدموها في المهمّ فقط، وقد كان عندهم أنواع من النثر منها القصص التي شغفوا بها شغفاً كبيراً، وساعدهم على ذلك فراغ الوقت، حيث كان الراوي يبهر السامعين بما يضيفه على القصة من خياله وفنه، فمرة يضحكهم ومرة يحزنهم، وقد استمدوا مادة قصصهم من الأساطير والخرافات السائرة المتنقلة بين الأمم، ومن الأخبار والأحاديث الخرافية والتاريخية المأثورة، وقد وصلت إلينا بعض هذه القصص عن طريق الرواة واللغويين في

العصر العباسي حيث دونوا ما وصل إليهم، ولا شك أن الكثير منها قد تغير وانحرف عن أصوله لطول المسافة والزمن بين العصر الجاهلي والعصر العباسي، ولكنها ظلت تحتفظ بسمات القصة القديم.

لقد تنوعت القصص في العصر الجاهلي بتنوع الأحوال فكانوا في كل جلسة سمر يروون قصصاً مختلفة، واقعية ومنها من وحي الخيال، وقد امتازت القصص في العصر الجاهلي بالمتعة والتشويق، وتصوير الواقع، ومن الموضوعات التي كان يتداولها الناس في قصصهم في ذلك العصر:

- ١- أيامهم وحروبهم. ما سجله أبطالهم من انتصارات. ما مُنيت به بعض قبائلهم من هزائم منكرة.
- ٢- كانوا يقصون كثيراً عن ملوكهم من الغساسنة والمناذرة كانوا يقصون عن ملوك الأمم الأخرى .
- ٣- قصوا عن كهانهم وشعرائهم وساداتهم. وهي قصص استمدت من كتب التاريخ والادب والشعر معينا لا ينضب من الاخبار .
- ٤- قصوا كثيراً عن الجن والعفاريت والشياطين. القص على السنة الحيوانات.

ثانيا - الأمثال:

ومفردها مَثَلٌ، وهو قول موجز بليغ قاله الناس وصفاً لحادثة ما، ثم صار يقال عند حصول كل حادثة مشابهة، ويمتاز بالإيجاز وجزالة اللفظ، والشيوخ والواقعية وغموض المعنى وهي أشبه بالالغاز .

وقد سارع العرب الى تدوينها ومن ارز المؤلفات :

امثال العرب ، المفضل الضبي - فصل المقال في شرح كتاب الامثال ، ابو عبيد القاسم بن سلام - جمهرة الامثال ، ابو هلال العسكري - مجمع الامثال ، الميداني .

ويتحدد تدوينها عند المؤلفين من خلال طريقتين :

الاولى : أن يسوقوا مع المثل قصة جاهلية تفسره .

الثانية : أن ينسبوا المثل الى جاهليين فحينئذ يتعين زمنه وتاريخه .

ومن ابرز الامثال :

(رب عجلة تهب ريثاً.)،(جزاؤه جزاء سنمار)، يُضرب فيمن يلقي الشر جزاء الخير.

(استنوق الجمل) ، (ادرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل.)،(المرء يعجز لا محالة.)،(مقتل الرجل بين كفيه.)

(كالمستجير من الرمضاء بالنار)، يُضرب فيمن هرب من مشكلة فوقع في غيرها.

ثالثا - الخطابة :

الخطبة : في اللغة هي رسالة مقروءة غايتها الإقناع، أما الخطيب فهو القائم بعملية الخطابة وإلقاء الخطبة"، فيكون الخطيب من يقوم بالخطابة لإقناع الناس بفكرة معينة أو رأي واستدراجهم والتأثير فيهم. الخطابة فن مشافهة الجمهور للتأثير عليهم أو استمالتهم والخطب والمخاطبة والتخاطب جميعها تعني المراجعة في الكلام والخطب. والخطب انواع : (خطب الحرب - خطب الزواج - الخطب الوعظية - خطب الوفود - خطب المناظرة - الخطب الاجتماعية)

ومن اهم الخصائص التي تميز بها فن الخطابة :

- الوحدة الموضوعية اي ان الخطاب يتحدث عن موضوع واحد فقط لان تنوع الافكار داخل الخطاب كانت ستؤدي الى تشتت فكر المستمع وبالتالي سيفشل في مهمته الاساسية .
- سهولة اللفاظ المستخدمة داخل الخطاب مما يعني انه يجب اختيار الالفاظ والمعاني حسب المستمعين حتى يستطيعوا فهمها بسهولة .
- تنظيم الافكار داخل الخطاب حتى يصل للمستمع بصورة واضحة
- يجب ان يكون الخطاب واقعي وان يكون بعيد كل البعد عن الخيال .

سمات الخطيب

العلم والقدرة على استمالة الجمهور واقناعهم. طلاقة اللسان، الرأي السليم والسيرة الحسنة فضلا عن سرعة البديهة والقدرة على المجارة في الحديث واستدراك الامور، والصوت الحسن المقبول بالنسبة للسامعين.

رابعا - سجع الكهان :

السجع: هو توافق العبارات أو الجمل في نهايات الفواصل أو هو الكلام المقفى غير الموزون الذي ارتبط في الجاهلية بشريحة الكهان.

والكهان عند العرب طائفة ذات قداسة دينية، وسلطان كبير لدى القبائل، شأنهم شأن الحكام في المنافرات. وكانوا يشغلون الوظائف الدينية في أماكن العبادات و يزعمون الاطلاع على الغيب، وأن لكل منهم رئيياً - أي صاحباً من الجن - يعرف الكاهن عن طريقه ما سيكون من أمور. ولتحقيق هذه الغاية كانوا يعمدون إلى السجع في لغة غامضة مؤلفة من ألفاظ غريبة ومعان معقدة وعبارات صعبة مبهمه ؛ لإيهام السامعين أنهم يتلقون ذلك من مصدر مجهول يرتبط بالغيب ، وكان الناس يتوافدون على هؤلاء الكهان من مختلف الجهات فيحكمونهم في منازعاتهم، ويستشيرونهم في أمورهم الخاصة وما ينوونه من أعمال، أو ما يرونه في منامهم من أحلام.

وقد ظهر في العرب عدد من هؤلاء الكهان، وفيهم من كانوا حكاماً في المنافرات أيضاً. ومنهم: سطيح الذئبي، وشق الأنماري، وعوف الأسدي، ومن النساء الكاهنات: فاطمة الخنعمية، وطريفة اليمينية، وزبراء، وعفراء.

خصائص أسجاع الكهان :-

أما من خصائص أسجاع الكهان فإنها - في جملتها - كلام عام، لا يرشد السامع إلى حقائق جلية، وإنما يضعه في الغموض والإبهام، باصطناع السجع، والإيماء، وقصر الجمل لإلهاء السامع عن تتبع ما يلقي إليه من الأخبار الغريبة، وجعله في حالة نفسية مضطربة تساعد الكاهن على الوصول إلى ما يريد، بكل سهولة ويسر، ويكون المخاطب، بتلك الإشارات الغامضة، والألفاظ المبهمة، والأقسام المؤكدة، والأسجاع المنمقة، مستعداً لقبول كل ما يقال له، بلا جدال أو اعتراض، وتأويل ما يسمعه بحسب حالته ومدى فهمه.

كما يلاحظ في نصوص الكهان أنها تحمل طابع التكلف الشديد في سجعها ولهذا لا يطمأن إليها كلها، فربما شاب بعضها الوضع والنحل، وربما كان بعضها محفوظاً صحيحاً، لقصره وإيجازه. أما سبب دخولها في النثر الفني فهو قيامها على السجع في عباراتها.